الدرس الثامن عشر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، اللهم إنا نسألك علما نافعا وعملا صالحا ورزقا طيبا.

قال الإمام الأواب محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب التحذير من البدع

عن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَة وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا، قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) قال الترمذي حديث حسن صحيح .

****

قال المصنف رحمه الله : ((**بابٌ التحذير من البدع**)) أي : ذكر الدلائل والشواهد الدالة على خطورة البدع وشدة ضررها على فاعليها وأهلها ، وأنها ليست من دين الله ﷻ ، وهي عبادة له جل وعلا بغير ما شرع وبغير ما أذِن به ﷻ .

وقد جعل المصنف رحمه الله هذا الباب خاتمةً لكتابه «فضل الإسلام» ؛ منبهاً بذلك أن فضائل الإسلام العظيمة وخيراته العميمة لا تُنال بالانشغال بالبدع والأهواء وبالتعبد لله ﷻ بغير ما شرع ؛ وإنما تُنال بالاستسلام لله بما شرع وبما أذِن به ﷻ وبما بعث به رسوله عليه الصلاة والسلام ، فمن أراد لنفسه تلك الفضائل العظيمة المترتبة على حفظ الإسلام والمحافظة عليه فليحذر من البدع ، وهذا هو السبب الذي لأجله أورد المصنف رحمه الله هذا الباب وجعله خاتمةً لكتابه «فضل الإسلام» .

والتحذير من البدع : أي ذكر ما يدل على وجوب الحذر منها والبعد عنها ومجانبتها ، والنصوص في هذا المعنى متكاثرة عن نبينا عليه الصلاة والسلام في تحذيره من البدع ؛ بل هو وصيته ﷺ لأمته كما في حديث العرباض بن سارية الذي ساقه المصنف رحمه الله في هذه الترجمة .

والبدع سبق الكلام على المراد بها عند ذكر قول النبي ﷺ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، فالبدعة: هي التقرب إلى الله ﷻ بما لم يشرع وبما لا أصل له في الدين ؛ بما لم يأت في الدين الأمر به أمر إيجابٍ أو أمر استحباب ، فكل قربةٍ يتقرب بها الإنسان إلى الله ﷻ لم يشرعها الله ولا أصل لها في دين الله ولا دليل عليها في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام فهي من البدع المحدثات ، حتى وإن حسُن قصد صاحبها ، حتى وإن رآها صاحبها حسنةً ، ولهذا روى محمد بن نصر المروَزي رحمه الله في كتابه السنة بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» ؛ أي أنه لا يشفع للإنسان استحسانه للبدعة ورؤيته لها أنها حسنة ، كذلك لا يشفع له إعجابه بها ، كل هذه لا تفيد ، فالبدعة ضلالة مهما كان مبرر الإنسان لها ومسوغاته فهي ضلالة ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) ، والنبي ﷺ أكد هذا المعنى مرات كثيرة ؛ بل كان عليه

الصلاة والسلام في كل جمعة يقرر هذا الأمر ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) ؛ ترسيخاً لهذا الأصل العظيم ليحذر الناس من البدع ، وهذا التأكيد المتوالي منه عليه الصلاة والسلام في بيان ضلالة البدعة وبطلانها لأن قلوب كثير من الناس تستهويهم البدع وتستميلهم . وقد يدخل بعضهم في البدعة من بابٍ حسن وهو باب حب الخير –كما سيأتي معنا في أثر ابن مسعود الذي ختم به المصنف رحمه الله هذه الترجمة– فقد يفعلها الإنسان من باب إرادة الخير والرغبة فيه والحرص عليه ؛ ولكن كما قال ابن مسعود ﷺ «ليس كل من أراد الخير حصَّله» ، الذي يحصل الخير ويفوز به هو من لزم سنة النبي ﷺ وأمَّرها على نفسه ، ولهذا قال بعض السلف : «مَنْ أَمَرَّ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ وَمَنْ أَمَرَّ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ» ؛ الذي يجعل السنة هي المحكَّمة وعليها المعوَّل وإليها المرجع وهي المعتمد هذا ينطق بالحكمة ، أما الذي يطلق لهواه العِنان ويرخي له الزمام فإنه ينطق بالبدعة وتكون أفعاله وأعماله وممارساته هي البدع .

ثم إن هذا فيه تنبيهٌ إلى أن كون الإنسان من أهل السنة أو من أهل البدعة مرتبط بحقيقة عمله لا بمجرد دعواه ، إذ لا يكفي في هذا الباب ادِّعاء الإنسان أنه من أهل السنة ؛ بل لابد من وجود حقيقة هذه الدعوى بلزوم السنة ، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «أهل السنة سموا أهل سنة لأنهم مظاهر ظهرت بهم السنة ، وأهل البدعة سموا أهل بدعة لأنهم مصادر صدرت منهم البدعة» ، ولهذا صاحب السنة وصاحب الحق يحتاج إلى مجاهدة لنفسه ليحذر من البدع فلا تستهويه ولا يستجِرنَّه الشيطان إلى حيث البدع ولا تستميله نفسه إلى أعمال لم يشرعها الله تبارك وتعالى ولم يأذن بها .

قال : ((**عن العرباض بن سارية ﷺ قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) ؛ قوله «**وعظنا**» ؛ الموعظة : هي النصيحة المشتملة على ترغيبٍ وترهيب ، فإذا كان النصح فيه ترغيب بالفضائل وترهيب من الرذائل وذِكرٌ للثواب والعقاب فيقال لها «موعظة» ، ففيها ترقيق للقلوب وتليين للنفوس وتأثير بما اشتملت عليه من ذكرٍ للثواب وذكرٍ للعقاب . فيقول العرباض ﷺ :((**وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) ؛ وصف ﷺ هذه الموعظة بصفات ثلاث :

الأولى: بلاغة هذه الموعظة ؛ قال «**مَوْعِظَةً بَلِيغَةً**» ، والمراد بالبلاغة هنا : إيصال المقصود بالكلام الواضح الجلي البيّن دون أن يكون فيه تعقيد أو غموض ، كلمات بليغة : أي كلمات واضحة سهلة يسيرة الفهم مؤثرة .

قال: ((**وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**)) هاتان الصفتان الأخريان ؛ وجلت القلوب : أي أصاب القلوب منها وجل وهو الخوف من الله ﷻ والخوف من عقابه ولانت وتأثرت . وذرفت العيون : أي بالدمع ؛ سال الدمع منها متأثرةً بهذا الوعظ من النبي ﷺ .

وقد أخذ أهل العلم من هذا الحديث ونظائره : أهمية تخوُّل الناس بالموعظة بين الفيْنة والأخرى ؛ فلا يُتركون هكذا بدون وعظ ، ولا يكون أيضاً الوعظ هو كل حديثهم ، وإنما يُتخولون بالموعظة تليينا للقلوب وجلباً لها وطرداً

لغفلتها فيُذكَّرون بالثواب والعقاب ، فلا يُترك الناس بلا موعظة ولا أيضاً تكون الموعظة هي غاية ما عندهم في العلم فلا ينشغلون إلا بها ولا يجلسون إلا لها ، لأن القلوب إذا لانت بالموعظة ولم يُبيَّن لها العلم ربما انشغلت بالبدع لأن الموعظة أوجدت فيها رغبةً في الخير وحرصاً عليه ، فإذا وُعظ الإنسان ولم يُدَل على الحق والهدى بالعلم الصحيح المسدد من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام أقبلت نفسه على العمل بلا علم ، قد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : «من عبَد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلِح». ولهذا ترك الناس بلا وعظ هذا خطأ، والاقتصار على الوعظ في تعليم الناس وحده هذا خطأ ، والصواب التخوّل بالموعظة بين الفينة والأخرى والوقت والآخر حسب حاجة الناس ، ويُنشغَل بالعلم وبيانه ودلالة الناس إلى السنن . وقد صار واضحاً في حال أقوام قصروا علمهم على الوعظ وحده أن جر ذلك إلى أعمالٍ وأمورٍ لم يأذن بها اللهﷻ، وقع فيها من وقع بسبب لين قلبه وشدة حرصه وعظيم رغبته ، وفي الوقت نفسه قلة علمه بدين الله ﷻ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولعل هذا الحديث يرسم للدعاة والمعلمين منهاجاً يُحتذى ومسلكاً يُسار على ضوءه ، فهو عليه الصلاة والسلام وعظهم فطلبوا منه الوصية ، يعني وصية يعملون بها إثر تأثرهم بهذه الموعظة ؛ فلم يُقتصَر عليها ، فأرشدهم إلى التقوى ، والسمع والطاعة ، والحرص على السنة ، والحذر من البدع ؛ أوصاهم عليه صلوات الله وسلامه بهذه الوصايا العظام التي هي من العلم النافع بل هي أساس العلم الذي يُبنى عليه وتبنى عليه الأعمال الصالحات والطاعات الزاكيات .

قال : ((**قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا**)) ؛ ولعل هذا الحديث كما أشار بعض شرَّاحه كان في أواخر حياته ﷺ ، وكأن الصحابة أحسوا بقرب توديعه ودنو أجله عليه الصلاة والسلام فأرادوا أن يعهد إليهم بوصية وتكون هذه الوصية جامعة لأبواب الخير مقرِّرة لأصوله وقواعده فقالوا : ((**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ**)) ، وليس هناك جزم وإنما وُجد عندهم شيء من الإحساس بذلك فقالوا : ((**كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا**)) .

ووصية المودِّع سواء كان مسافراً وودع أهله وقرابته ولاسيما إن كان السفر الذي يقصده طويلاً، أو كان أيضا مسافراً السفر الذي لا عودة بعده إلى أهله وهو إلى الدار الآخرة ، إلى الله ﷻ ، بمعنى أن يحس أن منيَّته دنت وأجله اقترب ، فتجد وصية من كانت هذه حاله أبلغ وأجمع وأوعب ، وقد كان من سنن الأنبياء وهديهم عند دنو الأجل العهد لذويهم ولعموم الناس بالوصية ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢] هذه وصية من يعقوب ومن إبراهيم عليهما صلوات الله وسلامه ، والله ﷻ سماها وصية ، والوصية هي قولهما : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ، والعادة في الوصية أن يكون فيها كلام قليل جامع لأبواب الخير لا يُنشغل فيها

بالتفاصيل إلا عند الحاجة للتفصيل ، أما الأصل فيها أن تكون مشتملة على كلمات قلائل جامعة للخير ويفصَّل عند الحاجة ، ولهذا كان يأتي في وصايا بعض السلف شيء من التفاصيل يقتضيها المقام أو يحتاج إليها ؛ مثل قول بعضهم في وصيته : " إني أبرأ من كل حالقة وسالقة ونائحة" إذا خشي أو وُجد في مجتمع الإنسان من البدع التي تُمارس في حق من مات ، و ((الْمَيِّت يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ)) قال أهل العلم : إذا كان مُقِراً لذلك راضياً به أو داعياً إليه ، فمثل هذه الوصايا التي هي نوع من التفصيل تأتي للحاجة ؛ وإلا فالأصل أن تكون الوصية تجمع ؛ يعهد إليهم بحفظ الإسلام والمحافظة عليه ، يعهد إليهم بلزوم تقوى الله ﷻ في السر والعلانية ، يعهد إليهم بالتحذير من الأهواء واتباع حظوظ النفس والشهوات ، إلى غير ذلك من الأصول الجامعة والكليات والقواعد .

((**قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ** ﷻ)) ؛ استهل صلوات الله وسلامه عليه وصيته الجامعة هذه بالوصية بتقوى الله ﷻ، وتقوى الله ﷻ هي وصيته ﷻ للأولين والآخرين من خلقه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[النساء:١٣١] ، وهي وصية الرسول ﷺ لأمته ، وهي وصية السلف الصالح رحمهم الله فيما بينهم.

وتقوى الله : هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من سخط الله ﷻ وعقابه وقايةً تقيه . الذي يشعر ببردٍ يتقيه بملابس الشتاء ، الذي يخشى الشمس يتقيها بمظلة ، والذي يخشى عقاب الله ﷻ وسخطه يجعل بينه وبين هذا العقاب والسخط شيئاً يقيه منه . تقوى الله : هي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من سخط الله ﷻ وعقابه وقايةً تقيه وذلك بفعل المأمور ، وترك المحظور ، وتصديق الأخبار . وأي إخلالٍ بشيء من هذه الثلاث نقص في تقوى الله ﷻ ، ولا تتحقق هي إلا بهذه الأمور : أن يفعل العبد ما أُمِر به ، وأن ينتهي عما نُهِي عنه ، وأن يصدِّق الأخبار الواردة عن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

ومن أجمع ما قيل في حد التقوى : قول طلق بن حبيب رحمه الله وهو من علماء التابعين عندما سألوه عن الفتنة التي حصلت كيف الخلاص منها ؟ قال : «اتقوها بالتقوى» ، فقالوا له : أجمِل لنا التقوى ؟ اذكر لنا تعريفاً مجملاً جامعاً لتقوى الله ﷻ . فقال رحمه الله : «تقوى الله : هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عذاب الله» . وهذا التعريف للتقوى هو من أحسن ما قيل في حدها ، وقد أثنى على هذا التعريف جمع من أهل العلم؛ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وتلميذه العلامة ابن القيم، والذهبي ، وابن رجب، وآخرين من هل العلم . وقد جمع رحمه الله في تعريفه للتقوى بين فعل الأمر وترك النهي وفي كل منهما أن يكون الإنسان على علم ، فقوله «على نور» أي على علم ؛علم بالمأمور ليفعله وعلم بالمحظور ليجتنبه ، ثم الجمع في ذلك بين الرجاء والخوف ؛ يفعل ما أمره الله ﷻ راجياً ثوابه ، ويجتنب ما نهاه الله ﷻ عنه

خائفاً من عقابه ، ففيه إحسانٌ في العمل يرجو ثواب الله ﷻ ، وبُعدٌ عن الإساءة يخاف من عقابه ﷻ وسخطه .

وبهذا يُعلم أن تقوى الله ﷻ ليست مجرد دعوى يدّعيها الإنسان ؛ لأنه من اليسير على كل إنسان ومن السهل على كل لسان أن يقول إنني من المتقين ، فالدعوى أمرها سهل ولكن العبرة بتحقيق التقوى والقيام بحقيقتها ؛ ذلاً وخضوعاً لله ﷻ ، وقياماً بطاعته ، وبُعدًا عن نواهيه ، ومعرفةً بعظمته جل وعلا وقدرته واطلاعه ، وأنه لا تخفى عليه ﷻ خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه الغفور الرحيم ، وأنه شديد العقاب ، كل هذا تحقيق لتقوى الله ﷻ .

قال : ((**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)) ؛ أي السمع والطاعة لمن ولاه الله ﷻ أمركم ، مَن وَلِيَ أمر المسلمين السمع لكلامه والطاعة لأمره.

والسمع والطاعة لم يأت في هذا الحديث فقط السمع والطاعة لولاة الأمر ؛ بل جاء في أحاديث كثيرة جداً عنه صلوات الله وسلامه عليه تأكيداً على هذا الأمر العظيم الذي به انتظام أمر المسلمين واجتماع كلمتهم ؛ لأن انتظام أمر المسلمين لا يكون إلا بجماعة ، ولا جماعة إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمعٍ وطاعة ؛ أمور مترابطة، انتظام أمر المسلمين لابد فيه أن يكونوا مجتمعين ، وإلا لو كان كل إنسان على رأسه كيف يتحقق لهم أمن!! كيف تتحد لهم كلمة !! كيف تجتمع القلوب !! كيف يؤمَن على الدماء أو الأعراض !! كيف تُستردّ الحقوق !! كيف تعاد المظالم !! الخ ، فهذا لا يتحقق إلا بجماعة ، أما إذا كانوا متفرقين لا تنتظم أمورهم أبداً ، ولا جماعة إلا بإمام ؛ لابد من وجود إمام ، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ؛ إذا كان لهم إمام ولا يُسمع له ولا يطاع فوجوده مثل عدمه ، لا تتحقق المصلحة بمثل هذا . ولهذا تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في الحث على السمع والطاعة ، بل جاء في بعض الأحاديث ضم السمع والطاعة لولي الأمر إلى الطاعات الكبار مثل الصلاة والزكاة ، وعدُّ ذلك من أسباب دخول الجنة ، ومن خطب النبي ﷺ في حجة الوداع قوله ﷺ : ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ)) ؛ فضمّ عليه الصلاة والسلام الطاعة لولاة الأمر إلى الصلاة والزكاة والصيام ، ضمها إلى هذه الطاعات الكبيرة وجعل هذه كلها من أسباب دخول الجنة .

وهناك ارتباط بين الصلاة والصيام والزكاة وبين طاعة ولي الأمر ؛ لأن هذه المصالح الدينية العظيمة لا تتحقق للناس إلا باجتماع وأمن وسلامة وزوال للمخاوف والاعتداءات والظلم ، وهذه كلها لابد فيها من جماعة ، والجماعة لابد فيها من إمام ، ولهذا إذا لم يكن الناس في جماعةٍ أمرهم منتظم ولهم إمام قد لا يتمكنون من أداء الصلوات في المساجد ، وقد لا يتمكنون من الاجتماع فيها لطلب العلم ، وقد .. وقد .. أمور كثيرة ، والله ﷻ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، يعني بعض الناس لا يردعه عن ممارسات خاطئة واعتداءات آثمة إلا خوفه من

السلطان ، مجرد وعظه أو نهيه أو تذكيره لا يكفيه ، فالسلطان يتحقق بوجوده مكاسب كبيرة وعظيمة لأمة الإسلام ، وهذه المصالح لا تتحقق إلا بالقيام بهذا الأمر وهو السمع والطاعة .

بل إنه عليه الصلاة والسلام أكد في بعض أحاديثه على السمع والطاعة حتى وإن كان السلطان أو ولي الأمر ظالم أو جائر أو غير عدل ، وهذا السمع والطاعة على خلاف ما يفهمه بعض الناس أنه يرجع إلى شخص السلطان ، هو يرجع إلى مكانة السلطان ومنزلته ،هو ولي أمر المسلمين ، وهذه مكانة عظيمة ، فالسمع والطاعة لمكانته ومنزلته وهي ولاية أمر المسلمين ؛ فيُسمع له ويطاع حتى تنتظم الأمور وتصلح وتستقيم ، هذا إذا كانت حاله – كما أشرت – الظلم والجور والفسق والاعتداء يُسمع له ويطاع من أجل مكانته ومنزلته التي بها تنتظم الأمور ، وإلا تصبح أمور الناس فوضى؛ تراق الدماء وتنتهك الأعراض وتُستلب الأموال وتتفرق الكلمة وتعم الفوضى وينتشر الفساد إلى غير ذلك من المفاسد التي تترتب على ذلك .

بل لو فُرض أن السلطان من جوره وظلمه اعتدى على مال الشخص وأخذه ظلماً قال عليه الصلاة والسلام مؤكداً على هذا الأمر العظيم : ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) ؛ وهذا فيه تنبيه من النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن بعض الناس مقابل أخذ حقه أو عدم إيصال حقه إليه ينزع اليد من الطاعة لحظ نفسه ، وقد يكون فيه هو نفسه فيه خلل ، فيكون المقياس في باب السمع والطاعة عنده النظر إلى حظ نفسه ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨] ؛ إذا أعطي من المال رضي وبارك السلطان وأثنى عليه ، وإن لم يُعطَ أو أخِذ منه شيء من حقوقه نزع اليد من الطاعة ، فأصبح نزع اليد من الطاعة ليس مرتبطاً بقضية نصرة الدين وإنما مرتبطة بمطامع ، ولهذا عمر بن عبد العزيز جاءه مرة حال ولايته نفر من الخوارج بزعمهم أنهم يعارضونه في مال المسلمين ومصارفه ، فأخذوا يتكلمون عن المال وكان كلما أوردوا عليه شيئا أجابهم بالآية والحديث والحجة والبرهان حتى لم يبقَ عندهم شيء وسكتوا ، فلما انتهوا قالوا : نحن جئنا من بلد كذا وكذا والمسافة بعيدة وليس عندنا مال ونريد أن تحملنا على البريد حتى نذهب ، قال عجباً أنتم تكلمونني الآن في المال ولا حق لكم في مال البريد أن تُحملوا عليه ، معنى كلامه : كيف تجادلون في المال وأنتم تطالبون في أمر يتعلق بالمال لا حق لكم فيه ، ثم أعطاهم شيء من أموال الصدقة ونحو ذلك ليركبوا بها إلى بلادهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[التوبة:٦٠] .

فبعض الناس في هذا الباب يستنكف من السمع والطاعة لحظ نفسه ؛ فتجده مثلا يخوض في أعراض الولاة ويطعن فيهم وفي عدالتهم مثلا لأنه لم يجد عملاً أو لم يُعطَ مالاً أو لكونه فقيراً ونحو ذلك من المعاني ، فالنبي ﷺ نبَّه على هذا الأمر قال : ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) هذه الكلمة لو قيلت لأحد الناس «اسمع وأطع ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك» قال لا والله ، وربما أتبعها بسب وشتم ، هذا أنفة من قبول الحق ،

هذا دين؛ الذي قال ((وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ)) هو نفسه الذي قال: ((اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ))، فبعض الناس يتقبل الصلاة ويتقبل الزكاة ولا يأنف، وإذا جاء إلى باب السمع والطاعة يستوحش . أيضاً كُتُب أهل العلم وكثيراً ما أضرب المثال بكتاب الإمارة في صحيح مسلم ، كتاب الإمارة في صحيح مسلم مضموماً إلى كتب الصلاة الزكاة الحج الإمارة ، فبعض الناس يقرأ كتاب الصلاة وكتاب الحج ولا يستوحش وأما كتاب الإمارة يستوحش منه!! لأنه مليء بالأحاديث ((اسمع وأطع، اسمع وأطع)) ونفسه فيها هوى منعه من قبول ذلك فلا يسمع ولا يطيع ، ولهذا جاءت التأكيدات عنه ﷺ في قضية السمع والطاعة لمن ولي أمر المسلمين مراعاةً لمكانة ومنزلة من ولي الأمر ، وحفظاً لجماعة المسلمين واجتماع كلمتهم واتحاد صفهم وبقاء هيبتهم في نفوس الأعداء .

وهنا ينبغي أن يلاحظ أن العدو لا يريد للمسلمين اجتماع الكلمة ، ولهذا ربما غرس فيهم من بني جلدتهم وممن يتكلمون بألسنتهم من يُفُتُّ في الاجتماع ويخلخل الاجتماع فيتكلم من الداخل ، لأنه لو تكلم العدو الخارجي لما قُبِل منه ، فربما زرع فيهم من داخلهم من يتكلم بألسنتهم وهو من جلدتهم من يُفُتُّ في هذا الاجتماع ويخلخل هذا الاجتماع من داخله من أجل انهيار الكيان الإسلامي والكلمة الإسلامية واجتماع المسلمين . وهذا من كيد الأعداء ومكرهم بأهل الإسلام ؛ فلهذا ينبغي أن يلاحظ المسلم هذا الأمر العظيم وأن يكون محل اهتمامه وعنايته عملاً بوصية النبي عليه الصلاة والسلام ، وانظر في قيمة هذه الوصية حيث ضمها إلى تقوى الله قال: ((**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ** ﷻ ، **وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ**)) أي : أوصيكم بالتقوى وأوصيكم بالسمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم .

ونبّه هنا عليه الصلاة والسلام بل حذّر من الاستنكاف والاستكبار ، ولاحظ تنبيهه وتحذيره من الاستنكاف والاستكبار بقوله: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) لأن النفس قد يدخلها استكبار ، بعضهم يقول : "ومَن يكون !! لا أسمع ولا كرامة " يستكبر ولا ينظر إلى مصلحة الأمة واجتماع المسلمين وإنما ينظر إلى أنفةٍ جاهلية كانت معهودة في أهل الجاهلية ، بل من أعظم خصال الجاهلية وأبرزها ثلاث خصال : الشرك ، والفرقة ليسو جماعة ، وعدم السع ؛ الأنفة من السمع والطاعة لمن ولي الأمر ، ولهذا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب لما ألّف كتاب مسائل الجاهلية بدأها بهذه الأمور الثلاثة ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ)) وذكر هذه الأمور الثلاثة ، يعني لا يجد فيها غل ؛ قلبه نظيف تجاهها ((لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَالنُّصْحُ لِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ)) ، قلب المسلم نظيف تجاه هذه الأمور الثلاث .

قال: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) بل أيضا زاد في الأوصاف في بعض الأحاديث قال: ((وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) ؛ عبد ، وحبشي ، ورأسه كأنه زبيبة ، وأيضا اسمع وأطع ؛ هذا كله تنبيه وتحذير من قضية الأنفة والكبر التي قد توجد في قلوب بعض الناس لأي مبرر كان ، فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول لا تأنف ولا تستكبر من السمع والطاعة مهما كان الأمر وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ.

هل قوله عليه الصلاة والسلام ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) تحديد أو ضرب مثال ؟ ضرب مثال ؛ يعني اسمع وأطع هذه مصلحة للأمة ، مصلحة للمسلمين ، اجتماع لكلمة المسلمين . ((اسمع وأطع وَإِنْ تأمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) وبإجماع أهل العلم أن العبد ليس أهلاً للولاية ، لكن إن تأمّر وغَلَب وأصبحت له ولاية بالغلبة واستتب له الأمر وأصبحت الولاية بيده قال: ((اسمع وَأطع وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد حبشي)) .

بعض أهل العلم قالوا : أن قوله ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) هذا مبالغة أريد بها التأكيد على قضية السمع والطاعة في كل الأحوال .

ومن أهل العلم من قال : بل حتى ولو حصل هذا الأمر له بالغلبة ، وقد يفيد في هذا المعنى قوله: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ**)) ؛ يعني إن حصلت له ولاية عليكم بالغلبة ، تغلّب عليكم وأصبح له غلبة وأصبح له ولاية واستقر له الأمر . قال: ((**وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عبد**)) .

الشاهد أن هذا فيه تأكيد عظيم جداً على قضية السمع والطاعة والتحذير من نزع اليد من الطاعة والخروج على الولاة الذي لا يترتب عليه إلا الشرور وإراقة الدماء .

جاء نفر من أهل بغداد إلى الإمام أحمد رحمه الله وذكروا الحال التي آلت إليه ولاية أمر المسلمين وانتشار البدع بل والكفريات على أيدي بعض الولاة في زمانهم والقول بخلق القرآن وغير ذلك ، فجاء بعض علماء بغداد إلى الإمام أحمد يشاورونه في الخروج على ولي الأمر ونزع اليد من الطاعة وأخذوا يعدِّدون عليه ؛ فعَل كذا وفعَل كذا وفعَل كذا ، فناظرهم ساعة قال لهم : «اتقوا الله، لا تريقوا دماءكم ولا دماء المسلمين» ، وقال لهم : «اصبروا حتى يستريح بَر أو يستراح من فاجر» ، وقرأ عليهم الأحاديث الواردة في الباب حديثاً تلو الآخر ذكّرهم بذلك كله ، ولما خرجوا عند باب بيته بعد بيانه لهم ونصحه قالوا لحنبل بن إسحاق – ابن أخي أحمد – تخرج معنا ؟ والإمام أحمد نصحهم الآن في البيت وعند باب بيته يكلمون ابن أخيه!! قالوا تخرج معنا ؟ يقول فشاورت والدي فقال لا تصاحبهم فإنما نهاهم أحمد عن شر ، قال حنبل ابن إسحاق ثم إنهم خرجوا فقُتل منهم من قتل وسُجن من سجن، وهذه نتيجة متكررة عبر التاريخ . وابن تيمية رحمه الله في كتابه منهاج السنة استقرأ قصص من كان منهم خروج على الولاة من أجل إنكار المنكر وخرج من ذلك بخلاصة قال : «فما أقاموا ديناً ولا أبقوا دنيا» ؛ يعني هؤلاء الذين خرجوا خلاصة أمرهم أنهم ما أقاموا دين الذي بزعمهم أنهم سيقيمونه ، ولا بقيت دنيا الناس لأن الدماء أريقت والأموال انتهبت والأعراض انتهكت والفوضى عمّت إلى غير ذلك ، وهذا كله يأتي بسبب تضييع السنة والأنفة من فعل ما أوصى به النبي عليه الصلاة والسلام .

فعهد إليهم عليه الصلاة والسلام هنا بالسمع والطاعة قال: ((**وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْد**)) وفي رواية ((حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ)) .

ثم قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) ؛ لاحظ بعد أمره بالتقوى والسمع والطاعة لولي الأمر أشار إلى أنه سيوجد فيما بعد اختلاف كثير ؛ وهذا علَم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، يخبِر بأمورٍ تقع في المستقبل يخبره الله ﷻ بها وينبؤه بها وتقع طبقاً لما أخبر عليه الصلاة والسلام ، فقال للصحابة الذين حوله: ((**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) ؛ من يعش منكم : أي من يطول عمره من الصحابة ويمتد به العمر فسيرى اختلاف ، أما من يموت قريباً فلا يرى ذلك ، ولهذا في آخر عهد الصحابة بدأت بذور البدع وأصول البدع الكبار وأنكروها واحدةً واحدة ، فوُجدت بدعة القدر ووُجد أيضا بدع تتعلق بالإيمان والتكفير ، وجد أيضاً بدع السبابة الذين يطعنون في الصحابة ﷺ ، وأصول البدع وجدت وأنكرها الصحابة ، كل من كان من الصحابة قد أدرك تلك البدع أعلن إنكاره لها وبراءته منها ، لما نُقل -كما في صحيح مسلم- لابن عمر بدعة القدرية قال : ((فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ، ولَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ)) ثم ساق الحديث الطويل حديث جبريل ، فالصحابة ﷺ من تأخر أو طال به العمر أدرك بدايات البدع وبدايات خروجها وأنكروا ذلك . وهنا عليه الصلاة والسلام أشار إلى هذا قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) .

ثم إن تساؤلاً يأتي هنا في قلب الناصح المحب للخير الطالب للفوز والنجاة ، إذا سمع ((**إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا**)) سيرِد في ذهنه سؤال : ما هو الحل ؟ ما هو المخرج ؟ كيف النجاة ؟ هذا كما يقولون سؤال يطرح نفسه ، وقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن هذا السؤال دون أن يُسأل ؛ فذكر الاختلاف وذكر المخرج قال: ((**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) ، وفي بعض الروايات ((فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) .

المخرج عند وجود الاختلاف الكثير يتلخص في أمرين لا نجاة إلا بهما ولا سلامة إلا بتحقيقهما :

- الأمر الأول : لزوم سنة النبي عليه الصلاة والسلام وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده؛ قال ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**))، والخلفاء الراشدون المهديون من بعده المعنيون بهذا الحديث هم أربع ليس لهم خامس ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً)) وهي مدة خلافة هؤلاء الأربعة ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ وهم خير الصحابة .

فأوصى هنا بلزوم سنتهم ، وسنتهم ليست أمراً جديداً خلاف ما كان عليه ﷺ ؛ بل هو توطيد وتثبيت لسنة النبي ﷺ ، فليس منهم من يأتي بشيء من قِبل نفسه ، وعمر بن الخطاب ﷺ لما قال: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» – وهي كلمة كم تعلق بها من يُحدِثون في الدين – هي من هذا الباب توطيد السنة وتثبيتها ، لأنه لما جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح وأعجبه هذا الاجتماع قال: «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» ، هل هذا إحداثٌ في الدين أو تثبيت

وتوطيد لسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام؟ ثبت أنه ﷺ صلى بالناس التراويح واجتمعوا خلفه جماعةً في المسجد وتوقف عن ذلك ولما سألوه قال: ((خَشِيتُ أَنْ تُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ)) ؛ هذا هو الذي منعه ، إذاً هي سنة ثابتة وتوقف عنها ﷺ خشية أن تُفرض رحمةً بأمته ، وهل هذه الخشية – خشية أن تفترض عليكم – موجودة في زمن عمر رضي الله عنه ؟ انتفت ؛ فجمع الناس ، إذاً هذا توطيد للسنة . وقوله : «نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» هذه بدعة لغوية ليست بدعة شرعية ؛ لم يُحدِث في الدين ما ليس منه ، لم يخالف قول النبي ﷺ : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) ، ثم يأتي أقوام بأمور لا أصل لها في الدين ويقولون هذه بدعة حسنة !! قد مر معنا قريبًا قول ابن عمر رضي الله عنهما : « كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» يعني لا يشفع لهم ذلك .

ثم لاحظ في الحديث وصف النبي ﷺ لهؤلاء الخلفاء بوصفين ؛ قال : ((**الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) وصفهم بهاتين الصفتين : الرشاد والهداية ؛ وهما وصفان وصف بهما رب العالمين نبيه ﷺ في قوله ﷻ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم:٢] ، فنفي الضلال يقتضي ثبوت ضده وهو الهداية ، ونفي الغواية يقتضي ثبوت ضدها وهو الرشاد ، والضلال : فساد العمل ، والغواية : فساد العلم ، وإثبات الرشاد والهداية يعني صلاح العلم والعمل .

فهنا قال عليه الصلاة والسلام: ((**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) خص هاتين الصفتين بالذكر منبهاً بذلك إلى صلاح علم الخلفاء وصلاح عمل الخلفاء ، فهم في باب العلم والعمل قدوة ؛ علمهم صالح وعملهم صالح ، فهم في العلم أهل علم نافع ، وفي العمل أهل العمل الصالح ، فأمَر بلزوم سنتهم والتمسك بها .

وقوله : ((**الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**)) هذا فيه تنبيه إلى ما أشرت إليه وهو: أن سنّتهم وصفها براشد ومهدي ، سنته تثبيت وتوطيد ليس عنده شيء من قِبل نفسه ، فالراشد المهدي : هو من صلُح علمه وعمله بالسنة والاقتداء بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فسنتهم من سنته وهديهم من هديه وطريقتهم من طريقته عليه الصلاة والسلام، وهم أبعد الناس عن البدع والأهواء وعن الوقوع فيها ، فأكد عليه الصلاة والسلام على لزوم سنتهم .

قال: ((**وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**)) بعض العلماء قال : إن مثل الإنسان في الفتن والبدع مثل شخص سقط في بحر لجي متلاطم الأمواج ووجد في هذه الأمواج الجارفة حبل ، من شدة حرصه على الخلاص لا يكتفي بمسك الحبل بيده ، يقول ربما أني أمسكه بيدي وترتخي يدي تنفلت منه ، فتجده من شدة حرصه يعض عليه بناجذه ، يُدخل الحبل في ناجذه في أضراسه ويعض عليه بقوة إضافةً إلى إمساكه بيديه ، وليته أيضا يسلم ، يخشى من الغرق . فهذا يوضح لنا ضرورة وحاجة الإنسان الشديدة في خضم الفتن والبدع والأهواء إلى الاعتصام بالسنة والتمسك بها والتعويل عليها وأن تكون هي قائد الإنسان وهي أميره يؤمّرها على نفسه .

((**عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ؛ وإذا كان عليه الصلاة والسلام أوصى في هذا الحديث بسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ولم يتهيأ للإنسان لقيا هؤلاء الخلفاء ، ولم يعطِ نفسه أيضا وقتاً لمعرفة سيَر هؤلاء الخلفاء فكيف يعَضّ بالنواجذ ؟ وإذا كان جُلّ اهتمام الإنسان في قراءاته اليومية فيما يسمى بالثقافة العامة ولا يقرأ سيَر هؤلاء وأخبارهم فكيف يعض بالنواجذ ؟ وفاقد الشيء لا يعطيه . فهذا فيه تنبيه على أهمية معرفة سيَر هؤلاء الأجلاء النبلاء الأفاضل وتكرار مدارسة أخبارهم وأخبار غيرهم من الصحابة ، فإنه بمثل هذه القراءة ومثل هذه المعرفة لسيَر وأخبار هؤلاء يتيسر للإنسان العض عليها بالنواجذ ، وإلا كيف يتسنى لشخص أن يعض بناجذيه على سنة الخلفاء الراشدين وهو ما عنده منها خبر! وليس لديه بها معرفة! ولا قرأ عنهم يوماً حرفاً !! بل يوجد في بعض المسلمين من قيل له من هم الخلفاء الراشدون الأربع ؟ قال ما أدري ، وربما غلط في أسماءهم ، مثل أن يقول بعضهم : عمر بن عفان ، أو يقول الآخر عثمان بن الخطاب ، يحصل هذا ، يعني حتى أسماءهم ما يعرفها ، وربما لو سُئل عن بعض التافهين من البشر وحثالات الناس لكان عنده معرفة تفصيلية بأسمائهم وتفاصيل حياتهم ، فكيف يتسنى للإنسان الاستنان بسنة الخلفاء الراشدين وهو ما عنده منهم خبر ولا قرأ لهم سيرة ولا وقف لهم على أثر !! فهذا فيه تنبيه على أهمية النظر في سير هؤلاء وأخبارهم وهديهم وسلوكهم ومنهجهم وطريقتهم ومجاهدة النفس على الاقتداء بهم ، هذا معنى قوله : ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي**)) هذا الذي به النجاة ((**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**)) ، هذا الأمر الأول .

- الأمر الثاني : ((**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ، قلت فيما سبق الحديث دل على أن المخرج من الاختلاف الكثير بأمرين: الأول لزوم السنة ، والثاني : مجانبة البدعة؛ وذلك في قوله : ((**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**))؛ «إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ» إياكم والأمور المحدثة التي أحدثها الناس ، أوجدوها من باب التدين والتقرب إلى الله ﷻ ، أو أوجدوها من باب النصرة للدين ، أو أوجدوها من باب ذكر الله والتقرب إلى الله .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) ؛ والمراد بالأمور: أي الأمور التي أحدثت في دين الله مما ليس عليه أمر رسول الله ﷺ كما يوضح ذلك قوله: ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) .

وقوله : ((**إِيَّاكُمْ**)) هذا تحذير ، كما أن قوله السابق ((**عَلَيْكُمْ**)) هذا ترغيب ، فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الباب بين الترغيب والترهيب ، رغّب في السنن وحذّر من البدع ؛ قال في السنن «عليكم بها» أي الزموها ، وقال في البدع «إياكم وإياها» أي احذروها .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ**)) أي : إياكم وكل أمرٍ أُحدِث في دين الله لا أصل له ولا دليل عليه في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكل ما كان من هذا القبيل احذروه ، تريدون النجاة كونوا من كل أمر أحدِث في

دين الله لا دليل عليه من كتاب الله ولا من سنة النبي ﷺ على حذر ، حتى وإن أعجبك ، حتى وإن رأيته حسنا ، حتى وإن زُيّن في عينك ، حتى وإن مضيتَ عليه سنوات ، حتى وإن مضيت عليه عمرك ؛ دعه .

((**إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**)) ؛ وقوله : ((فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) هذه قاعدة وأصل كلي جامع لا يخرمه شيء ولا يستثنى منه شيء ، والنبي ﷺ في مثل هذه الكليات الجوامع إذا كان فيها استثناء يستثني هو عليه الصلاة والسلام نصحاً للعباد ، وقد مر معنى قوله ﷺ : ((كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى)) لما كان في هذا العموم استثناء استثنى عليه الصلاة والسلام ، فهنا قوله : ((كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)) لا يستثنى منه بدعة ، حتى ما كان من البدع ما يراه الناس حسناً جميلاً جيداً نافعاً مفيداً إلى غير ذلك فهو ضلالة ، ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله كلمته العظيمة التي أوردها الشاطبي في كتابه الاعتصام قال : «قال ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول : {اليوم أكملت لكم دينكم} فما لم يكن يومئذ ديناً ، فلا يكون اليوم ديناً» ، فالبدع كلها ضلالات حتى وإن استحسنها الناس ، حتى وإن قال صاحبها "ما أردت إلا الخير" ، وهذا سيأتي معنا ، وكم من بدعة فُعلت وأصحابها لم يريدوا بها إلا الخير ، لكن هذا لا يكفي ؛ لابد مع إرادة الخير من موافقة السنة ولزومها والتمسك بها ، فمن أراد النجاة فليحذر من البدع .

قال رحمه الله :

وعن حذيفة ﷺ قال: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها ؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالا، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم» رواه أبو داود.

****

ثم أورد هذا الأثر عن حذيفة ابن اليمان ﷺ أنه قال : ((**كل عبادةٍ لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبّدوها**)) يعني كل عبادة لم تكن موجودة عند الصحابة وبين الصحابة فلا تعبّدوها ؛ لماذا؟ لأنها ليست من دين الله ، دين الله ﷻ هو الدين الذي بلّغه النبي ﷺ ومات وترك الصحابة عليه ، ولعلك تلاحظ هذا المعنى في قوله: ((إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا)) ، أما الدين فهو الدين الذي ترك النبيﷺ الصحابة عليه ، وكانت توجد بعض الأخطاء من بعض الأفراد فينبه عليه الصلاة والسلام على الخطأ في حينه ويُترك ، فالدين هو الدين الذي كان عليه الصحابة . وما نشأ بعدُ مما لم يكن عليه الصحابة فهذا ليس من دين الله ، ولهذا سيأتي إنكار ابن مسعود البدع التي وجدها في بعض مساجد الكوفة؛ أنكر عليهم بأن هذا العمل ليس معهوداً بين الصحابة فقال لهم : «لقد جئتم ببدعة ظلما أو فُقْتُم أصحاب محمدٍ عِلْما» يعني بلغتم في العلم موصلاً ودرجة لم يبلغها الصحابة .

فالدين هو ما كان عليه الصحابة ، ولهذا جاءت هذه الوصية من حذيفة قال : ((**كل عبادةٍ لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها**)) ؛ يعني كل عبادة لا يوجد عليها عمل الصحابة لا تعبّدوها ، وهذا فيه إشارة إلى الطريقة، الآن بسبب كثرة المحدثات تسمع هنا وهناك : "أنا طريقتي كذا وأنا طريقتي كذا وأنا طريقتي كذا" من الطرق المحدثة، وتحت كل طريقة من تلك الطرق المحدثة –طرق المتصوفة– تحت كل طريقة ركام هائل من البدع وزخم كبير من الضلالات لا حد لها ولا عد ، وكلٌ مفتخر بطريقته ، وكلٌ منتسب إلى طريقته بما فيها من ذاك الركام الكبير من الضلالات والبدع ، بدءً من الشرك وانتهاءً إلى أنواع كثيرة من الخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، فالطريقة هي طريقة الصحابة .

ما الطريقة التي ينبغي أن يكون عليها المسلم ؟ قال : ((**كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبدوها**))؛ أي لتكون طريقتكم طريقتهم ومسلككم مسلكهم . ولم يرضَ هذا أقوام ، ولهذا بعضهم يقسِّم أمره؛ في الاعتقاد يعتقد عقيدة أحد مؤسسي البدع ، وفي العمل يذهب مذهب بعض أهل الخرافة والضلال وهو في بُعدٍ تام عن هدي الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم .

فهذه وصية عظيمة أوصى بها حذيفة بن اليمان ﷺ قال : ((**كل عبادة لا يتعبّدها أصحاب محمد ﷺ فلا تعبَّدوها**)) ؛ هذه قاعدة عظيمة في هذا الباب ، يعني كل عبادة لم يكن لها وجود في زمن الصحابة فلا تعبَّدوها ، ولهذا وجدنا أهل العلم لما أنكروا بدعة المولد ماذا قالوا في الإنكار؟ طرحوا سؤالاً لم يجب عنه أصحاب المولد ، قالوا لهم هل أنتم أحرص على الدين وأحرص على النبي ﷺ وأبلغ في حبه من الصحابة ؟ هل أنتم أفضل في محبة النبي ﷺ من أبي بكر ومن عمر ومن عثمان ومن علي ؟ هل درجة المحبة التي عندكم أبلغ من درجة هؤلاء وأكبر ؟ الجواب : لا ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة مع شدة حرصهم وعظيم حبهم للنبي ﷺ ما منهم واحدٌ احتفل ، لم يحتفلوا لا بمولد ولا برجبية ولا شعبانية ولا ولا .. إلى غير ذلك ، هذه وجدت من بعد في القرن الثالث ((**فكل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**)) .

فإذا جاءك شخص وقال "هذا من باب كذا ومن باب كذا وهذا أمر حسن وهذا أمر عظيم" قل له : قال ابن عمر ﷺ : «كل بدعة ضلالة وإن رآها الناس حسنة» ، والهدي القويم والصراط المستقيم هو ما كان عليه الصحابة ، يقول من يحيون المولد : "نظهِر حب نبينا عليه الصلاة والسلام" ، هل ندَّ هذا الإظهار عن أبي بكر وعمر وهم أحرص منك وغاب عنهم !! هل هو خيرٌ حجبه الله عز وجل عن الصحابة وادَّخره لك !! لو كان خيرًا لسبقوا إليه ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ممتدحًا ومثنيًا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة:١٠٠] هؤلاء أهل الثناء؛ ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ ، أما الذين أحدثوا هؤلاء شأنهم آخر ليسو من أهل هذا الثناء ، ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾وهذا يؤكد لنا

وصية حذيفة هذه ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ يعني اتبعوا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، أما شخص لا يقنع بطريقتهم ولا يرضى سلوكهم ويخترع وينشئ ويُحدث ويعمل أعمالا ليست من هديهم ولا من طريقتهم فهذا خاسر ، والربح إنما يكون باتباعهم بإحسان ، قال: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ هذا معنى قول حذيفة ((**فكل عبادة لم يتعبدها أصحاب رسول الله ﷺ فلا تعبدوها**)) .

((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)) ؛ وهذا حق ، هل تُرك لنا شيء من الحق والهدى لم يبيَّن في الصدر الأول ؟! ولم يتبين في الزمن الأول ! لم يدع لقائل مقالا ؛ ولهذا كل مقال لا يكون قائما على الكتاب والسنة ليس منطلقًا من الكتاب والسنة ليس مؤسسًا على الكتاب والسنة فهو ضلال ، لا مانع أن يتحدث العالِم على ضوء الكتاب والسنة موضحا ومبينا ؛ موضحا المعاني مبينا الدلالات رابطًا بين النصوص متكلمًا في هذا الباب بعلم وفهم وأصل ودرايةٍ من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ؛ لا مانع من ذلك ، أما أن يُترك الكتاب والسنة ثم يتكلم الإنسان في باب العبادات من خلال الذوق ، أو يتكلم في باب العبادات من خلال التصور ، أو من خلال الفكر، أو من خلال الرأي، أو من خلال النظريات العقلية أو من خلال التجارب أو إلخ " هذا كله ضلال .

((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)) ؛ وكل مقال لم يؤسَّس على ما كان عليه الأول ولم يُبنَ على ما كان عليه الرعيل الأول فهو ضلال ؛ هذا معنى قوله ((**فإن الأول لم يدَع للآخر مقالا**)).

((**فاتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ و«القراء» عندما تطلق في هذا الزمان لا يراد بها حفظة حروف القرآن ومن يجوّدونه ويحسنون مخارجه ؛ المراد بالقرَّاء : العلماء الذين جمعوا في قراءة القرآن بين العلم والعمل ، لأن الجادة التي كان عليها الصحابة في تعلم القرآن : الجمع بين العلم والفهم والعمل ، بعضهم يمكث في سورة البقرة سبع سنوات، والآن في زماننا تُعقد منافسات ويحفظ القرآن في ستة شهور !! ما الذي يحفظ في ستة شهور؟ حروف القرآن ، ابن عمر مكث في سورة البقرة سبع سنوات لماذا؟حفظ وفهم وتدبر وعمل ، فالقراء المراد بهم: من اعتنوا بالقرآن علما وعملا.

وقد ذم النبي عليه الصلاة والسلام من كان حظه من القرآن مجرد القراءة دون عناية بفهم القرآن ودون عناية بالعمل بالقرآن ، بل ذكر عليه الصلاة والسلام من حال الخوارج أنهم يقرؤون القرآن قراءةً يحقر الصحابة قراءتهم مع قراءتهم، ويصلّون صلاةً يحقر الصحابة صلاتهم مع صلاتهم ، ووصفهم مع ذلك كله بقوله : ((يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ، يعني ما يتعدى حظه من القرآن الحنجرة ؛ ما معنى الحنجرة؟ يعني صوت جميل رائع ، مخارج جميلة ، قراءة حسنة عظيمة ما يجاوز هذا الحد ، حظه من القرآن الصوت الذي يخرج من الحنجرة هذا معنى قوله ((لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ)) ، يعني لا يتجاوز حظه من القرآن الصوت الذي يخرج من الحنجرة ، فإذا قرأ قيل ما أجمل صوته ما أحسن صوته ، أما فهم القرآن والعمل بالقرآن والعناية فهذا شأنه أمر آخر .

فقال: ((**اتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ والقراء يخصون بالوصية بالتقوى لأنهم أصبحوا بذلك موضع قدوة للناس، فإذا كان من قرأ القرآن وحفِظه مضيعاً مقصراً متهاوناً مفرطاً فكيف بمن سواه !! وإذا كانت قراءة القرآن مجرد منافسة في باب حفظ القرآن فقط دون عمل فهذا فيه خطر على الناس ، قد جاء عن الحسن البصري رحمه الله أنه ذكر جماعة من القراء في زمانه قال «يقول الواحد منهم قرأت القرآن كله ولم أسقِط منه حرفا» يعني أنني قرأته من أوله إلى آخره بدون لحن بدون أي خطأ ؛ لا في المخارج ولا في المدود ولا الخ، «وقد أسقطه والله كله ، لا يُرى عليه القرآن لا في خُلقٍ ولا في عمل» يعني إن نظرت إلى أخلاقه لا تجد فيه الأخلاق الموجودة في القرآن ، وإذا نظرت إلى أعماله لا ترى فيه الأعمال التي يدعو إليها القرآن، ثم قال رحمه الله : «ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الحكماء ولا الورعة ، وإذا كانت القراء مثل هؤلاء لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء» ؛ هذا في زمن الحسن البصري زمن التابعين !! .

فالقراء هم أهل العلم بالقرآن والعمل بالقرآن ومجاهدة النفس على القيام بما جاء في القرآن . والآن تجد في زماننا من يشتهر بقراءة القرآن وبصوته الجميل ثم إذا رأيت أعماله تُصدم والله ، يعني تجد معاصي معروفة ومتقررة وبيِّنة في الكتاب والسنة ما يبالي بها ؛ تجد فيهم من هو حليق ، وتجد فيهم من هو مدخن وتجد فيهم من هو مسبل ثيابه ، وتجد فيهم من هو أعظم من ذلك متهاون في صلاته ينام عن صلاة الفجر وينام الخ ، بل وجد في فترة الماضية أحد مشاهير القراء افتتح أغنية لإحدى المغنيات الكبار بآيات جاء وقرأها بين يدي الأغنية !! يا سبحان الله أي حال هذه وأي أمر هذا !! وعبارة الحسن التي قالها في زمانه خفيفة في مثل هؤلاء ، وبعضهم أخذ أيضا يطوِّع القرآن وصوته بالقرآن إلى إيقاعات معيّنة تُعرف عند أهل الموسيقى وذهب بالقرآن مذهباً آخر ؛ هذا كله عبث ، وكله من عدم معرفة قدر القرآن ومكانة القرآن -تنزَّهَ كلام الله ﷻ- ، وقد قال أحد أهل العلم قديما : «من أراد أن يعرف الفرق بين كلام الله وكلام البشر فهو كالفرق بين الله وخلقه»؛ هذا كلام رب العالمين ﷻ .

فأوصى حذيفة ﷺ هذه الوصية العظيمة قال : ((**فاتقوا الله يا معشر القراء**)) ؛ خصهم بالوصية مع أن التقوى يوصى بها الجميع لأن القراء في موضع القدوة ، أرأيتم الآن لما ينظر الناس إلى أحد المشاهير الذين عُرفوا بالصوت الجميل وتأثر بصوته وقراءته ثم لما رأى عمله ماذا سيقول من رآه ؟ يقول إذا كان هذا بهذه الصفة فأنا من باب أوْلى ، فكم يكون على أيديهم من خطر على أعمال الناس وعلى سلوكهم ، والقرآن كما قال الحسن : «أنزِل ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملا» ، وإذا أردت أن تعرف معنى قوله «أنزل ليُعمل به» اقرأ حديث عائشة لما سُئلت عن خُلق النبي ﷺ قالت : «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» .

قال: ((**اتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم**)) ؛ يعني يا معشر القراء إذا أردتم النهج السديد والمسلك القويم فخذوا طريق من كان قبلكم ، يعني انظروا في طريقة الصحابة ﷺ ، ولهذا من الحسنات الطيبة والجميلة أن مدارس القرآن ومدارس التحفيظ تسمى بأسماء مشاهير القراء من الصحابة ، هذه دعوة للطلاب أن

ينظروا إلى هؤلاء القدوات من الصحابة الأعلام قراء القرآن حفظة كتاب الله الذين جمعوا بين العلم والعمل ، وهذا فيه تنبيه من حذيفة إلى أن من أكرمه الله ﷻ بالقرآن وقراءته والجلوس لحفظه عليه أن يأخذ بطريقة الصحابة وينظر في هدي الصحابة ونهج الصحابة مع كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد .